المحاضرة السابعة: إخوان الصفا

أولا / المفهوم

إخوان الصفا وخِلاّن الوفا هم جماعة من فلاسفة المسلمين العرب من أهل القرن الثالث الهجري والعاشر الميلادي بالبصرة اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها(تحف إخوان الصفا) وهنالك كتاب آخر ألفه الحكيم المجريطي القرطبي المتوفى سنة 395 هـ وضعه على نمط تحفة إخوان الصفا وسماه (رسائل إخوان الصفا) تحت تأثير الفكر الإسماعيلي انبثقت جماعة إخوان الصفا في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وكانت اهتمامات هذه الجماعة متنوعة وتمتد من العلم والرياضيات إلى الفلك والسياسة وقاموا بكتابة فلسفتهم عن طريق 52 رسالة مشهورة ذاع صيتها حتى في الأندلس ويعتبر البعض هذه الرسائل بمثابة موسوعة للعلوم الفلسفية، كان الهدف المعلن من هذه الحركة التظافر للسعي إلى سعادة النفس عن طريق العلوم التي تطهر النفس، تأثرت رسائل إخوان الصفا بالفلسفة اليونانية والفارسية والهندية وكانوا يأخذون من كل مذهب بطرف ولكنهم لم يتأثروا على الإطلاق بفكر الكِنْدي واشتركت مع فكر الفارابي والإسماعيليين في نقطة الأصل السماوي للأنفس وعودتها إلى الله وكان فكرتهم عن منشأ الكون يبدأ من الله ثم إلى العقل ثم إلى النفس ثم إلى المادة الأولى ثم الأجسام والأفلاك والعناصر والمعادن والنبات والحيوان فكان نفس الإنسان من وجهة نظرهم جزء من النفس الكلية التي بدورها سترجع إلى الله ثانية يوم المعاد، والموت عند إخوان الصفاء يسمى البعث الأصغر بينما تسمى عودة النفس الكلية إلى الله البعث الأكبر.

وكان إخوان الصفا على قناعة أن الهدف المشترك بين الأديان والفلسفات المختلفة هو أن تتشبه النفس بالله بقدر ما يستطيعه الإنسان وكانت كتابات إخوان الصفا ولا تزال مصدر خلاف بين علماء الإسلام والتساؤل حول الانتماء المذهبي للجماعة فالبعض اعتبرهم

من أتباع المدرسة المعتزلية والبعض الآخر اعتبرهم من نتاج المدرسة الباطنية وذهب البعض الآخر إلى وصفهم بالإلحاد والزندقة.

ثانيا/ المفهوم الفلسفي

من أبرز غايات إخوان الصفا مزج الدين بالفلسفة، فالعلوم الحكمية والفلسفة والشريعة عندهم أمران إلهيان يتفقان في الغرض المقصود منها ــ الذي هو الأصل ــ ويختلفان في الفروع، وذلك أن الغرض من الفلسفة عندهم هو التشبه بالإله بحسب طاقة البشر، وإخوان الصفا خلطوا الدين بالفلسفة وأساطيرها، ولم يتعدّ أبو حيان التوحيدي الصواب حين حكم على وسائلهم بأنها خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات، واتخذ إخوان الصفا الفلسفة أداة لدعوتهم في تشكيك الناس في دينهم وعقيدتهم، فيهدمون الدين ويرفعون بدلا منه أطلال فلسفة الأوثان المهدومة.

ثالثا/ الإطار التاريخي

هم جماعة سرية دينية، وسياسية فلسفية، وشيعية أو إسماعيلية باطنية، تألفت وتضافرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري منهم :محمد بن مشير البستي، وعلي بن هارون الزنجاوي، ومحمد بن أحمد النهرجوري والعوضيوزيد بن رفاعة.

اعتقد أفراد الجماعة أن الشريعة الإسلامية دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولن تطهر ويحصل الكمال لها إلا بالفلسفة؛ لاشتمالها على الحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية.

اجتمع أفراد هذه الجماعة على القدس والطهارة، ووضعوا مذهبا استخلصوه من كل علم، زاعمين أنه يؤدى إلى الفوز برضى الله؛ ولذا سموا "إخوان الصفا وخلان الوفا."

رسائلهم:

لإخوان الصفا اثنتان وخمسون رسالة، حوت الكثير من العلم النفيس، وضمت العديد من الخلط الرخيص، وجمعت معارف عصرهم العلمي والفلسفي والديني، ضمت الرسائل أربعة أقسام :قسم في الرياضيات، وآخر في الجسمانيات "الطبيعيات"، وثالث في النفسيات "العقليات"، ورابع في الناموسيات "الإلهيات"، بالإضافة إلى الرسالة الجامعة التي توضح كل ما جاء بهذه الرسائل، وقد ظهرت الرسائل في أخريات القرن الرابع الهجري،

ولم تنسب لمؤلف ويغلب انتماؤها إلى هذه الجماعة، وهي على أي حال تتميز بالنزعة الكلامية الفلسفية أكثر من تميزها بالصفة الأدبية البيانية.

تحكي الرسائل الخصومة الأبدية بين الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن، يروي مؤلفوها أن الحيوانات كانت حرة تركض في الغابات، والإنسان يسكن أعالي الجبال، ثم ما لبث أن تحضر وتجمع في المدن، وانقض على الأنغام والبهائم يستعبدها ويسخرها، ثم تروي الرسائل أن الناس أخضعوا بالإسلام حين ظهر، وخضع فريق من الجن له، وكان "بيراست الحكيم "ملك الجن يحكم جزيرة "صاغون "التي تقع في وسط البحر الأخضر، قريبة من خط الاستواء، وحدث أن استطاب نفر من الآدميين الإقامة بالجزيرة، وأخذوا يتعرضون لحيواناتها التي هربت منهم، وذهبت إلى "بيراست الحكيم "يشكون ظلم الإنسان لهم، فبعث إليهم كي يمثلوا بين يديه.

ويحلق خيال مؤلفو الرسائل فيجعلون زعماء الحيوانات يختارون "ابن آوى "يتحدث عنهم، ثم يعتذر عن مهمته لكثرة أعدائه من الكلاب، فيتقدم الذئب معللا عداوة الكلاب للحيوانات وصداقتهم لبني الإنسان فيقول" :إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما حدث عندهم من المرغبات واللذات، ومن المأكولات والمشروبات، وما في طباعها من الحرص واللؤم والبخل، وما في جبلتها من الأخلاق المذمومة في بني آدم مما السباع عنه بمعزل، وذلك أن الكلاب تأكل اللحمين :نيئا وجيفا مذبوحا وحامضا.. وما شاكلها من أصناف مأكولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها."

ويدافع زعيم الإنس عن حقهم في تسخير الحيوانات بآيات من القرآن الكريم مثل : ((وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمونَ))النحل/5 ــ 8 .

ويرد البغل على هذه الحجج فيقول" :ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسي من آيات القرآن - أيها الملك- دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، إنما هي آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه، سخرها كما سخر الشمس والقمر والرياح والسحاب، أفترى أيها الملك أننا عبيد وأنهم أرباب؟." !

ويستنطق مؤلفو الرسائل كل فرد من بني الإنس بأسلوب بني جنسه ثقافة وتفكيرا، ويصف سحنتهم وأزياءهم وعاداتهم، فالهندي طويل اللحية، والعبراني يرتدي برداء أصفر، والسرياني والمسيحي يلبس ثيابا من الصوف، والقرشي يلبس ثوبين وإزار وكأنه رجل محرم.

فالرسائل مرآة لأفكار إخوان الصفا، تعكس عقائدهم الاجتماعية والسياسية والثقافية، وتتميز بسهولة الأسلوب ووضوح الفكرة واختيار الألفاظ، مما جعلها قريبة من المقال الأدبي الفلسفي في أشياء عديدة.

وتدور موضوعات الرسائل -كما هو واضح- حول نقد العقائد الهندية واليهودية والنصرانية والإسلامية، من خلال عقيدة إخوان الصفا الشيعية العلوية، وتهدف إلى محاربة الحاكم الظالم ومن يعملون معه، وتنتهي بدفع الملوك لظلم الملكين :ملك الجن وملك النحل.

المراجع

1ـ محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، الطبعة الثانية، مكتبة الأقصى، عمان، عام 1986.

2ـ ـ الموسوعة التاريخية: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية(موقع إلكتروني)، 1433 هـ

3 ـ المقال وتطوره في الأدب المعاصر: السيد مرسي أبو ذكري، الناشر: دار المعارف، الطبعة: 1981-1972